قصة نجاة المعرى بالدعاء

هل هى خرافة ؟

للأستاذ برهان الدين الداغستانى

كتاب سر العالمين :

للامام أبى حامد الغزالى كتاب صغير الحجم يسمى « سر العالمين ، وكشف ما فى الدارين » رسم فيه سياسة وافية للفوز فى الدنيا والآخرة ، جاء فى أوله : « سألنى جماعة من ملوك الأرض أن أضع لهم كتاباً معدوم المثل لنيل مقاصدهم ، واقتناص المالك ، وما يعينهم على ذلك » .

طبع هذا الكتاب لأول مرة فى بومباى سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) ثم طبع فى القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) .

وفى هذا الكتاب ذكر الغزالى قصة نجاة المعرى بالدعاء ، ثم تناقلها المؤرخون ، والكتاب جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر من غير نكير ولا شك ولا ارتياب .

ولعل مما جعل المؤرخين ينقلون هذه القصة من غير ارتياب فيها ويتقبلونها على ما فيها — لعل من أسباب ذلك — فوق مكانة الغزالى فى قلوب العلماء على تعاقب الأجيال — قرب العهد بين المعرى والغزالى ، فقد ولد الغزالى بعيد وفاة المعرى والمسافة بين سنة ٤٤٩ وفاة المعرى وسنة ٤٥٠ ، سنة مولد الغزالى ليست بذات بال فى الحوادث التاريخية . فالغزالى على هذا أول راو لهذه القصة والمصدر الذى استقى منه كل من أتى بعده من المؤرخين .

قصة نجاة المعرى بالدعاء :

بعد هذا التمهيد الوجيز نقدم للقارىء نص القصة كما ذكرها الغزالى قال :

حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار ، قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرى زنديق ، لا يرى إفساد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل . فأمر محمود بحمله إليه من المعرة إلى حلب ، وبعث ثمانين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يابن أخى قد نزلت بنا هذه الحادثة : الملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، وركب تنوخاً العار والذلة ، فقال له : هون عليك يا عم ، فلا بأس علينا ، فلى سلطان يذب عنى ، ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر ... أين الريح ؟ فقال : فى منزلة كذا وكذا . فقال : زنه ، واضرب تحته وتداً ، وشد فى رجلى خيطاً ، واربط به إلى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، ياصانع المخلوقات ، وموجد الموجودات ، أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف ! الضيوف ! الوزير . الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة ؛ فسئل عنها ، فقيل: وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ، فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى ، فقال : من أين أتيت ؟ فقلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أنى زنديق ، ثم قال : اكتب وأملى على :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى ... من غفلتى وتوالى سوء أعمالى(١)
قالوا هرمت(٢) ولم تطرق تهامة فى ... مشاة وفد ولا ركبان أجمال
فقلت : إنى ضرير والذين لهم ... رأى رأوا غير فرض حج أمثالى
ماحج جدى ولم يحجج أبى وأخى ... ولا ابن عمى ولم يعرف منى خالى
وحج عنهم قضاء بعد ما ارتحلوا ... قوم سيقضون عنى بعد ترحالى
فان يفوزوا بغفران أفز معهم ... أولا فإنى بناد مثلهم صالى
ولا أروم نعيما لا يكون لهم ... فيه نصيب وهم رهطى وأشكالى
فهل أمر إذا حمت محاسبتى ... أم يقتضى الحكم تمناتى(٣) وتسآلى
من لى برضوان أدعوه فيرحمنى ... ولا أنادى مع الكفار أمثالى(٤)
باتوا وحتفى أمانيهم مصورة ... وبت لم يخطروا منى على بال

(١) رواية القفطى : أفعالى .
(٢) رواية سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان : هدمت .
(٣) رواية القفطى : تمناتى .
(٤) رواية هذا البيت فى القفطى هكذا :
من لى برضوان أدعوه أرحه ... ولا أنادى مع الكفار يا مال

وفوقوا لى سهاماً من سهامهم فأصبحت وقصاً منى بأميال
قالوا وهم كفيول فى كثافتهم ولا نجاح لأفيال كأفيال
لما هتفت بنصر الله أيدنى كأن نصرته بجبريل وميكال
وجاء إذ ذاك عزرائيل يغضب لى فيقبض الروح مغتاظاً بإعجال
فما ظنونك إذ جندى ملائكة وجندهم بين طواف وبقال
لقيتهم بعصا موسى التى منعت فرعون ملكا ونجت آل إسرال
أقيم نحسى وصوم الدهر آلفه وأدمن الذكر أبكاراً بآصال
عيدين أفطر من عامى إذا حضرا عيد الأضاحى يقفو عيد شوال
إذا تناقصت الجهال فى حلل رأيتنى من خميس القطن مرتالى
لا آكل الحيوان الدهر مأثرة أخاف من سوء أعمالى وآمالى

وكيف أقرب طعم الشهد وهو كذا
غصب لكسب نحل ذات أطفال

نهيتهم عن حرام الشرع كلهم ويأمرونى بترك المنزل العالى
وأعبد الله لا أرجو مثوبته لكن تعبد إكرام وإجلال
أصون دينى عن جعل أؤمله إذا تعبد أقوام بأجمال

رأى الكتاب والمؤرخين في هذه القصة

هذه هى قصة نجاة المعرى بالدعاء كما ذكرها الإمام أبو حامد الغزالى فى كتاب سر العالمين وكشف ما فى الدارين . ثم تتابعت الأيام ، ومضت السنون والأعوام والمؤرخون ينقلون هذه القصة لا يشكون فيها ولا يرتابون فى أمرها . فقد نقلها عن كتاب سر العالمين سبط ابن الجوزى — ٥٨١ — ٦٥٤ هـ فى كتاب مرآة الزمان .

ونقلها عن مرآة الزمان الصفدى — ٦٩٦ — ٧٦٤ هـ فى كتابيه : الوافى بالوفيات ، ونكت الهميان فى نكت العميان .

كما نقلها عن الغزالى أيضاً ابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .

ونقلها عن ابن أبى أصيبعة كل من صاحب سكردان السلطان والشيخ العباسى المكى من علماء القرن الثانى عشر الهجرى فى كتاب نزهة الجليس .

وذكر ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فى تتمة المختصر ملخص القصة ، ثم قال : فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده .

كذلك نقل القصة أيضاً عن كتاب سر العالمين النعيمى — ٧٩٢ — ٨٥٥ هـ فى كتاب عقد الجمان .

والشيخ عبد القادر العلوى فى كتاب الكوكب الثاقب .

كل هؤلاء الأعلام من رجال العلم والأدب والتاريخ رووا هذه القصة كل على حسب مزاجه ورأيه من اختصار لها أو إسهاب فيها ولكن واحداً منهم لم يحاول إنكار الفكرة الأصلية فيها أبداً .

ولما كتب الدكتور طه حسين بك كتابه « ذكرى أبى العلاء » أنكر هذه القصة من أساسها لأن عم أبى العلاء مات قبل أبيه ! ، ولأن المعرى لم يكن يتحمل السحر ، ولا يعرف الطلسمات ! ولم يرض هذا التكذيب القاطع الذى لا يستند إلى سبب معقول مؤرخ حلب الشيخ محمد راغب الطباخ فذكر فى كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (ج ٤ ص ١٦٣) سبباً جديداً معقولا لانكار هذه القصة . وهو أن محمود بن صالح تولى حلب بعد وفاة المعرى بنحو أربع سنوات . فكيف تحدث هذه القصة فى عهد محمود بن صالح ؟

وعن الشيخ محمد راغب الطباخ — فيما أعتقد — أخذ هذه الحجة الأستاذ الشيخ اليمنى وأثبتها فى كتابه عن المعرى . جازماً بها ، راضياً عنها .

وفى عدد الرسالة : ٦٢٥ ص ٦٧٥ قرر الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول : أن هذه القصة خرافة مروية . معتمداً فى ذلك على كتاب الأستاذ اليمنى عن أبى العلاء المعرى .

بقى أن نذكر أن عالماً فاضلا بحاثاً مدققاً هو المرحوم أحمد تيمور باشا ذكر فى كتابه الذى نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد وفاته الخلاصة التى أوردها ابن الوردى ثم نقل تفصيل هذه القصة عن كتاب الكوكب الثاقب للشيخ عبد القادر العلوى ولم يحاول تكذيبها ولا الشك فيها ولكنه أراد استبعاد « رصد المريخ » لأن من يقف على كلام المعرى فى المنجمين ، وتقبيح أعمالهم يحكم بأن ذلك من الموضوع عليه .

وبعد فهذه هى قصة نجاة المعرى بالدعاء وهذه أدوارها التى مرت بها . فهل هى خرافة مروية حقاً .

مرشد الزين الرافعستانى